الفصل التاسع

غزوة اليمامة

الجيش الذى أمد به أبو بكر خالداً لقتال مسيلمة

سار خالد بن الوليد من البطاح على رأس عسكره ومعه المدد الذى أمدّه أبو بكر به ، ومقصدهم جميعاً اليمامة ، يلقون بها مسيلمة بن حبيب متنبئ بنى حنيفة . ولم يكن هذا المدد الذى بعث به الصدّيق دون جيش خالد أيْدًا أو قوة . فقد تألف من رجال من المهاجرين والأنصار أصحاب رسول الله الذين شهدوا الحرب فشهدت لهم الحرب ، ومن القبائل التى عُرفت فى القتال بالبأس والبطش . ولقد كان ثابت بن قيس والبَرَاء بن مالك على رأس الأنصار ، وأبو حُذيفة وزيد بن الخطاب على رأس المهاجرين ؛ أما القبائل فكان على كل قبيلة زعيمها . وهل كان لأبى بكر أن يضن على قائد عسكره للقاء مسيلمة بمدد ! . لقد كان يعلم أن أربعين ألفاً يقفون إلى جانب هذا المتنبئ فى عُدّة القتال ، وأنهم يؤمنون به ويلاقون الموت فى سبيله ، فإذا هو لم يرمهم بخيرة المسلمين فى القيادة ، وفى البطولة ، وفى خوض المعامع ، تعرّضت سياسته فى قتال أهل الردة جميعاً للفساد . وأبو بكر أحصف وأعلى رأياً وأبعد نظراً وأقوى إيماناً من أن يعرّض الإسلام الناشئ لمثل هذا المصير .

وكان بين هؤلاء الذين أمد بهم أبو بكر خالداً جماعة من القراء حفّاظ كتاب الله ، كما كان بينهم جماعة ممن شهدوا بدراً . هذا مع أن أبا بكر كان يضن بأهل بدر ويقول : « لا أستعمل أهل بدر ، أدعهم حتى يلقوا الله بصالح أعمالهم ؛ فإن الله يدفع بهم وبالصالحين أكثر مما ينتصر بهم » . وإنما خرج الصدّيق على رأيه ذاك

فأمد خالداً بالبدريين و بمن شهدوا المواقع فى عهد الرسول لأن مسيلمة كان قد استغلظ أمره فى اليمامة ؛ فكل تضحية فى سبيل القضاء عليه دفع عن دين الله ، وكل تهاون معه يزيد الثورة فى بلاد العرب ضِراماً ، ويزيد موقف المسلمين حرجاً .

والحق أن ما أدركه المسلمون إلى ما قبل اليمامة من النصر قد كان بالقياس إليها هيناً يسيراً . كانت القبائل القريبة من المدينة والتى أرادت محاصرتها غداة بيعة الصدِّيق ، لا يدّعى أحد فيها النبوة ، ولا تطمع فى شىء إلا أن تعفى من الزكاة . وقد نجح عَدِىّ بن حاتم فى صرف القبائل عن طُلَيحة الأسدىّ ، فهان أمره فلم يقو على المقاومة . ولم تكن أم زمل لتقوى عليها بمن اجتمع حولها من فلول تلك القبائل . وكان بنو تميم على خلاف بينهم ، وكانت سجاح قد وهّنت من عزم مالك ابن نويرة ، فلم يكن بينه و بين خالد بن الوليد قتال . أما مسيلمة ومن اجتمع حوله باليمامة فكانوا ينكرون أن يكون محمد رسول الله إليهم ، وكانوا يرون لأنفسهم ما لقريش من حق . فلهم نبىّ ورسول ، كما لقريش نبىّ ورسول ؛ ولهم فى العرب مكانة تضارع مكانة قريش ؛ وبينهم من الجند البواسل أضعاف جند قريش عدداً . وهم إلى ذلك كتلة واحدة ، لا يفتّ فى عضدهم خلاف ولا يضعضع من عزمهم تنافس ، وليس بينهم من التفاوت فى العقيدة والجنس مابين أهل اليمن . لا جرم ، وذلك شأنهم ، أن يكونوا أولى بأس وقوة يجب أن يحسب الصدِّيق لها الحساب .

قوة مسيلمة وأسبابها

ولم تكن هذه العوامل وحدها هي التى لفتت نظر أبى بكر لتقوية غُزاة اليمامة ما استطاع تقويتهم . فهو حين عقد ألويته الأحد عشر لحرب أهل الردّة لم يكن يقيم لمسيلمة كل هذا الوزن ، أو يحسب لبني حنيفة كل هذا الحساب . لذلك وجّه إليهم عِكرمة بن أبى جهل ، ثم وجّه فى أثره شُرَحْبيل بن حَسَنة يعاونه . وسار عكرمة إلى اليمامة ولم ير أن ينتظر شُرحبيل ، بل بادر بلقاء مُسيلمة ليكون له فخار النصر عليه . وكان عكرمة بطلا مجرّباً وفارسا مغوارا ، وقد اجتمع فى لوائه أبطال

عكرمة بن أبى جهل ينهزم أمام قوات مسيلمة

صناديد طالما أبلَوْا فى الحرب أحسن البلاء . مع ذلك لم يثبُت عِكرمة ولا ثبت لواؤه لمسيلمة ، بل نكَبهم بنو حنيفة فانهزموا ، وبلغ من نُكْر هزيمتهم أن أقام شُرَحبيل بالطريق حيث أدركه الخبر على حقيقته الفاجعة . وكتب عِكرمة لأبى بكر بالذى أصابه وأصاب جنده ، فملك أبا بكر الغضب وكتب إليه : « يابن أم عكرمة ! لا أرينك ولا ترنى . لا ترجعنّ فتُوهن الناس . امضِ إلى حُذَيفَةَ وعَرْفَجَةَ فقاتل أهل عُمَان ومَهْرةَ ، ثم تسير أنت وجندك تستبرئون الناس حتى تلقَى المهاجر بن أبى أُمية باليمن وحضرموت » . ولا أرانى فى حاجة إلى بيان ما فى هذا الكتاب من مظهر الغضب . وحسبُك بدؤه بقوله : « يابن أم عكرمة » ، ففى هذه العبارة ما فيها من زراية واستخفاف .

كيف استغلظ أمر مسيلمة ؟ !

كيف استغلظ أمر مسيلمة حتى بلغ هذا المبلغ ؟ ! لقد كان — على تعبير مؤرخى العرب — « رويجلا ، أصيفر ، أخينس » لا يدعو مظهره إلى تقدير أو احترام . ولقد ذهب مع وفد بنى حنيفة إلى النبىّ عام الوفود ، فلما بلغ الوفد المدينة لم يأخذه قومه ليلقى النبىّ معهم ، بل خلّفوه على رحالهم . ولما أسلم القوم بذل لهم النبى العطاء ، فذكروا له مسيلمة ، فأمر له بمثل ما أمر به لكل منهم ، وقال يجامله : « أمَا إنه ليس بشرّكم مكاناً » ؛ وذلك لحفظه رحال أصحابه . أفيكون ذلك هو الذى يدّعى النبوّة من قومه ! لذلك لم يصدّقه منهم أوّل الأمر إلا نفر قليل . أفمعجزة تلك التى جمعت الألوف وعشرات الألوف حوله فيما دون السنتين ؟ كلا ! وإنما هى شعبذة المشعبذين ، وحيل المحتالين ، وانقياد الجماعات لهؤلاء وأولئك .

نهار الرجال وخدعته

فقد كان من أهل هذه الأرجاء رجل يُدْعَى « نهاراً الرجّال — أو الرحال — بن عُنْفُوة » . وكان قد هاجر إلى رسول الله بالمدينة ، فقرأ القرآن وفقه الدين ، وعرف تعاليم الإسلام ؛ وكان ذكيًّا ذا بصيرة . أرسله رسول الله معلّماً لأهل اليمامة يفقههم فى الدين ، ويردّ من اتّبع منهم مسيلمة ، ويشدّ من عزائم المسلمين ويشغب معهم على المتنبئ الكاذب . لكن « نهاراً » كان أعظم فتنة على بنى حنيفة من

مسيلمة نفسه . فهو لم يلبث ، حين رأى السواد يتبعه ، أن أقرّ بنبوّته وأن شهد بأن محمداً يقول إن مسيلمة قد أُشرك فى الرسالة معه . ما عسى أن يقول أهل اليمامة عن هذا ! . لقد شهد شاهد من أهل محمد لمسيلمة . وهذا الشاهد رجل فقيه عالم ، يتلو عليهم قرآن محمد ، ويقص عليهم تعاليمه ، ويفقّههم فى دينه ، وهو يشهد لمسيلمة بالنبوّة . ما إلى نفى ذلك أو الطعن فى صحته بعدئذ من سبيل . لذلك أقبل الناس على مسيلمة أفواجاً يؤمنون به رسولاً لله إلى بنى حنيفة ؛ وبذلك أقبلت عليه الدنيا وأصبح فى متناول يده كل ما يشاء ويهوى .

ووضع مُسيلمة كل ثقته فى « نهار الرجال » ، وصار ينتهى إلى أمره فى كل ما يريد أن يقلّد محمداً فيه . وجعل نهار ، لقاء ذلك ، يعُبّ من نعيم الحياة الدنيا ويستمتع بكل ما لذّ له أن يستمتع به منها . وإذا الفقهاء والعلماء أسلموا لمتاع الدنيا أنفسهم ، وأخضعوا لمن يملكون هذا المتاع علمهم ، فويلٌ للعلم والفقه ، وويل للحقيقة أى ويل ! !

ولسنا نقف عندما يروى من محاولة مُسيلمة إتيان المعجزات ، ولا عند ما أوحى إليه فى زعمه ؛ فذلك كله سخف لا يثبت للتاريخ ونقده . وحَسْبُنا ما تقدم بياناً للأسباب التى أدّت إلى متابعة الناس مسيلمة وإلى استفحال أمره ، حتى لم يستطع عكرمة حين لقيه إلا أن يعود منكوباً مهيض الجناح .

طليحة النمرى وكيف اتبع مسيلمة

ولا تسل كيف اتّبع مسيلمةَ عقلاء قومه ، وأنت تعرف العصبية العربية وتعصب القبائل لاستقلالها وحريتها . ذكروا أن طُليحة النَّمَرىّ جاء اليمامة فقال : أين مسيلمة ؟ قالوا : مَهْ ! رسول الله . قال : لا ، حتى أراه . فلما جاء قال له : من يأتيك ؟ قال : رحمان . قال : أفى نور أم فى ظلمة ؟ قال مسيلمة : فى ظلمة . ورد طليحة : أشهد أنك كذّاب وأن محمداً صادق ، لكن كذاب ربيعة أحبّ إلينا من صادق مُضر . وفى رواية ذكرها الطبرىّ أن طليحة قال : كذّاب ربيعة أحبّ إلينا من كذّاب مضر . واتّبع الرجل مع ذلك مُسيلمة وقاتل وقُتل معه .

أمَّا وذلك شأن مسيلمة وما أصاب عِكرمة فى قتاله ، فلم يكن بين قواد العرب من ينازله غير داهيـة الحرب وعبقريها خالد بن الوليد ، ولم يكن عجبـاً أن يعزّز أبو بكر خالداً بالمدد . ثم إن الصدّيق كتب إلى شُرَحْبيل بن حَسَنة أن يقيم حيث هو حتى يجىء خالد إليه . فإذا فرغوا من مسيلمة لحق شُرحْبيل بعمرو بن العاص يُعينه على قُضَاعة فى شمال شبه الجزيرة .

خالد يسير إلى اليمامة بجيوشه

وفيما خالد يسير إلى اليمامة التقت جيوش مُسيلمة بلواء شُرحبيل واضطرته إلى الارتداد . يقول بعض المؤرخين إن شرحبيل صنع ما صنع عكرمة ، وأراد أن يفوز بفخار النصر فأصابه ما أصاب سلفه . ولعل الأمر لم يكن كذلك ، وإنما تقدمت جند من اليمامة فلاقوا شُرحبيل فارتدّ عنهم حتى يجيئه خالد . وأىّ ذلك كان فقد بقى شُرحبيل حيث تراجع حتى بلغته جيوش المسلمين ، فلما عرف خالد ما أصابه لامه أشـدّ اللوم على صنيعه . ولعله كان يؤثر أن يتراجع من غير أن يشـتبك مع خَصْمه حتى لا يقوّى الظفر روحهم المعنوية .

سرية مجـاعة بن مرارة يقتلها خالد ابن الوليد

وإن جيوش خالد لتتلاحق إلى أرض اليمامة وتبلغ أنبـاؤها مسيلمة إذ خرج مُجَّـاعة بن مُرَارَة فى سريّة يطلب ثأراً له فى بنى عامر و بنى تميم ، وقد خاف أن يفوته إذا شُغل بلقاء المسلمين وقتالهم . وأدرك مُجّاعة ثأره وكر راجعاً مع أصحابه ، حتى إذا بلغوا ثَنِيّة اليمامة كان التعب قد أخذ منهم فناموا . وأدركهم جيش خالد فتنبّهوا ؛ وعرف خالد أنهم من بنى حنيفة ، وظن أنهم خفوا لقتاله فأمر بقتلهم ، لم يغن عنهم قولهم إنهم خرجوا لثأرهم . فقد سألهم عن رأيهم فى الإسلام ، فكان جوابهم : نقول منـا نبيّ ومنـكم نبيّ . وقال أحـدهم ، سارية بن عامر ، وهو يُعْرَض على السيف يخاطب خالداً : « أيها الرجل ! إن كنت تريد بهذه القرية غداً خيراً أو شرًّا فاستبق هذا الرجل » ، وأشار إلى مجّاعة . واستبقى خالد مجاعة لم يقتله ، وجعـله كالرهينة ؛ لأنه كان من أشراف بنى حنيفة ، وكان له عندهم

مقام كريم ، ولأن خالداً كان يطمع فى معاونته إياه بالرأى . ولقد قيّده بالحديد ، وجعله فى قبّته ، وجعل زوجه الجديدة ليلى أم تميم على حراسته .

لكنه يأخذ مجاعة رهينة عنده

كان مسيلمة قد جمع جنده بعَقْرَباء فى طرف اليمامة ، وجعل الأموال وراء ظهورهم . وكان هذا الجند أربعين ألفاً ، وقيل ستين ألفاً . وهذه أعداد قلما سمع العرب بمثلها فى الجيوش من قبل . وأقبل خالد غداة اليوم الذى ارتهن فيه مجاعة فصفّ جنده فى وجه مسيلمة صفّ القتال . ووقف الجيشان ينظران أمر الصِّدام ، وكلٌّ يقدّر أن مصيره معلّق بمصير ذلك اليوم . ولم يبالغ أيهما فى تقدير هذا الأمر ؛ فيوم اليمامة من الأيام الحاسمة فى تاريخ الإسلام ، وفى تاريخ العرب .

جند مسيلمة بعقرباء

يوم اليمامة يوم حاسم فى تاريخ العرب

كانت قوة مسيلمة قوة الرِّدّة الملحّة والإنكار الصريح أن تكون نبوّة محمد لغير قريش ، وأن تكون للناس كافّة . وكانت هذه القوة هى المركز الذى تتطلع إليه الأعين من اليمن وعُمان ومَهْرَةَ والبحرين وحضرموت والجنوب كله من شبه الجزيرة منحدراً من مكة والطائف إلى خليج عدن ، وتتطلّع إليه الأعين كذلك من بلاط فارس ، وكانت جيوش مُسيلمة تؤمن به وتتفانى فى سبيله ، ثم تزيدها الخصومة القديمة بين الحجاز وجنوب الجزيرة إيماناً وتفانيا . وكانت جيوش المسلمين زهرة قوتهم والملاذ والحمى لدين الله وكلمته ؛ عليها خالد أعظم قائد عرفه التاريخ فى عصره ، وبينها حفّاظ كلام الله قُرّاء القرآن ، وقد جاءوا جميعاً يملأ الإيمان قلوبهم بأن الجهاد فى سبيل الله والدفع عن دينه الحق أوّل فرض على المؤمن ، وأنه فرض عين على كل ذى علم وبيّنة . لا محيص إذن أن تكون المعركة حامية ، وأن تكون مثلا لما لقوة الإيمان من بأس وسلطان .

وتقدّم شُرَحْبيل بن مسيلمة يحرّض جيش بنى حنيفة بعبارات تهتز لها النفس العربية الدقيقة الحس بكل ما يتصل بالعرض والحسب أشد اهتزاز . صاح فيهم :

ابن مسيلمة يحرض قومه بنى حنيفة

« يابنى حنيفة ! اليوم يوم الغَيْرة . إن هُزمتم تُسْتَرْدَف النساء سبيّات ، ويُنْكَحْنَ غير حَظِيَّات . فقاتلوا عن أحسابكم ، وامنعوا نساءكم » ، وأمرهم أن يشدّوا . والتقى الجمعان والمسلمون لمّا تحتدم حميّتهم ؛ يقول المهاجرون لسالم مولى أبى حُذَيْفَة : تخشى علينا من نفسك شيئا ؟ فيجيبهم : بئس حامل القرآن أنا إذاً . بل لقد تنابزوا بشر من هذا الحديث وأسوأ منه أثراً . جعل المهاجرون والأنصار يرمون بالجبن أهلَ البوادى ، ويرميهم أهلُ البوادى بمثل ما يرمونهم به . يقول أهل القرى : « نحن أعلم بقتال أهل القرى يامعشر أهل البادية منكم » . ويقول أهل البادية : « إن أهل القرى لا يحسنون القتال ولا يدرون ما الحرب » .

تراجع المسلمين ودخول جنود مسيلمة فسطاط خالد بن الوليد

لذلك لم يَثْبُتوا لجموع بنى حنيفة ، مع ما كان بين الفريقين من قتال شديد ؛ فانثنى صفّ المسلمين هزيماً ، وزال خالد عن فُسْطاطه ، فدخله بنو حنيفة فرأوا فيه مُجّاعة مقيداً بالحديد ، ورأوا على مقربة منه أمّ تميم . وحمل رجل منهم بالسيف على ليلى يريد أن يقتلها ، فصاح به مجاعة : « مَهْ ؛ أنا لها جارٌ ، فنِعْمَتِ الحرّة ؛ عليكم بالرجال ! » . وقطع الجند حبال الفسطاط وسرقوه بسيوفهم تاركين مجاعة وليلى ينظران ما الله صانع بالقوم جميعا .

على أن المسلمين لم يتراجعوا حتى قتلوا من بنى حنيفة خلقاً كثيراً . وكان فى الأوّلين الذين قُتلوا نَهارٌ الرجّال القارئ الفقيه الخائن الخادع . خرج فى طليعة بنى حنيفة ، فلقيه زيد بن الخطاب فقتله ، فأزال بقتله من الوجود روح الإثم التى طوّعت لمسيلمة أن يبلغ ما بلغ ، وأن يقف وجنده يهدد المسلمين ويرسل الروع فى نفس كل حريص على دين الله .

لم تزايل خالدَ بن الوليد رباطة جأشه حين زال عن فسطاطه ، ولم يداخله ريب فى مصير اليوم . لقد رأى أنمّا انهزم من جند المسلمين من انهزم لتنابز الناس وتواكلهم ، فلو لم يتواكلوا انتصروا . لذلك لم يلبث ، حين لاحت له فترة

صيحة خالد : امتازوا أيها الناس

تهادن بين الفريقين أن صاح فى الجند صيحة بطش وغضب : « امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حىّ ، ولنعلم من أين نُؤتَى » . ودوّت هذه الصيحة تداولها سمع الجيش كله فنبهته إلى حقيقة أمره . واطمأن خالد ، حين رأى الناس امتازوا ، إلى أنه قطع بأمره كل مظنة للتواكل ، وأنه هيّأ للنصر طريقه .

الحمية لدين الله تثور فى قلوب المسلمين

أثارت صيحة خالد ما ركّب فى الفطرة العربية من قوة العصبيّة . ورأى زعماء المسلمين ما حلّ بهم ، فثارت فى قلوبهم الحميّة لدين الله ، وسما الإيمان بنفوسهم إلى ما فوق مراتب الحياة ، وتجلى الاستشهاد أمامهم باسماً مضيئاً يفتح لهم أبواب الجنة خالدين فيها ، وأظلّتهم نسمة من رَوْح الله أرتهم الحياة لهواً ولعباً وغروراً باطلا ، فانقلبوا من الهزيمة يطلبون النصر أو الشهادة . قال ثابت بن قيس — وكان على رأس الأنصار — « بئسما عوّدتم أنفسكم يامعشر المسلمين ! اللهم إنى أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء (وأشار إلى أهل اليمامة) وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء (وأشار إلى المسلمين) ، ثم اندفع فى الوطيس يقاتل ويقتُل ، وينادى : « هكذا عنّى حتى أريكم الجلاد ! » وأبلى بلاء أذهب عن الأنفس الروع ، وظلّ يجاهد حتى خلصت إليه الجراح من كل جانب فمات وقد رُزق الشهادة . وكان البَرَاء بن مالك من الصناديد الذين لا يعرفهم الفرار ، فلما رأى ما صنع الناس وثب وقال : « أين يامعشر المسلمين ! أنا البراء بن مالك . هلمّ إلىّ ! » . وسمعه المسلمون وكلهم يعرفون بأسه ، ففاء إليه منهم فئة قاتلت القوم وقتلت منهم حتى أجلتهم عن مواقفهم . وهبّتْ ريح أثارت الرمال فى وجوه المسلمين ، فذهب قوم يتحدّثون إلى زيد بن الخطاب ما يصنعون ، فكان جوابه : « لا والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم ، أو ألقى الله فأكلمه بحجّتى . غضّوا أبصاركم وعضّوا على أضراسكم أيها الناس ، واضربوا فى عدوكم وامضوا قُدُماً » واندفع فى صدر القوم يقاتل ويقتل ، وجنده من ورائه ، حتى لقى الله يكلّمه بحجّته . وصاح أبو حُذيفة بمن حوله : « يأهل القرآن ، زيّنوا القرآن بالفعال » . وألقى بنفسه فى الغمار يقاتل وقومه

الذين ابتغوا الشهادة وفازوا بها

حتى ضمه الله إليه . وأخذ سالم مولى أبى حُذَيفةَ الراية وقال : « بئس حامل القرآن أنا إن لم أثبُت » ، وقاتل حتى قُتل . بهذه الصيحات صادرة من قلوب ملأها الإيمان قوة و بأسا ، سرت روح الاستشهاد فى جند المسلمين جميعاً ، فهانت أمامهم الحياة واستحبوا الشهادة عليها ، فاندفعوا يطلبونها صادقين ، فردوا جيوش مُسيلمة إلى ما وراء خطوطها الأولى .

جيوش مسيلمة تقاتل قتال المستيئس

وكانت جيوش مسيلمة تقاتل قتال المستيئس هى كذلك . كانت تقاتل عن وطنها ، وتقاتل عن أحسابها ، وتقاتل عن عقيدة مريضة هى عندها دون الوطن ، ودون الحسب مقاماً ؛ لذلك ثبتت للمسلمين وجعلت تردّ منهم من تستطيع رده ، وتحارب عن كل شبر من الأرض لا تتزحزح عنه حتى تعود وتحاول استرداده .

لم يُرَعْ خالد لاستبسال بنى حنيفة ، بل أيقن حين سمع صيحات المسلمين ، ورأى إقدامهم على الموت مستبشرين ، أنه ملك زمام اليوم ، وأن النصر صار منه قريباً .

خالد يداور ليقتل مسيلمة

لكنه حرص مع ذلك على أن يرى المسلمون هذا النصر قريباً كما يراه هو . لذلك خرج على رأس رجاله وقال لحماته : « لا أو تَينّ من خلفى » ، ثم صاح صيحة المعركة : « يامحمداه » . وهو لم يكن يريد بخروجه وبصيحته أن يشدّد العزائم فحسبُ ، بل كان يريد كذلك أن يسلك إلى النصر أسرع طرقه ، وأن يستله من مكمنه . فقد رأى بنى حنيفة يسقطون حول مسيلمة قتلى لا يبالون الموت ، فأيقن أن أقرب الطرق إلى النصر قتل مسيلمة نفسه . لذلك داور برجاله حتى كان حِيالَه ، ثم جعل يستدرجه ليخرج إليه . وأقبل المحيطون بمسيلمة يخرجون إلى لقاء خالد فيلقاهم الموت من سيفه قبل أن يبلُغوه . وكثر فى هؤلاء القتل ، وشعر مسيلمة بالخزى يركبه لشدة جبنه ، فساورته نفسه أن يخرج كما خرجوا ؛ لكنه أيقن أنه مقتول إن خرج لا محالة ؛ فتردد واضطرب . و إنه لفى اضطرابه وتردده إذ شد خالد بن الوليد برجاله عليه وعلى من حوله وركبوهم يُعملون فيهم السلاح . هنالك صاح أصحاب مسيلمة به : « أين

فرار مسيلمة وأصحابه

ما كنت تَعِدنا ! » . فأجابهم وقد ولّى مدبراً : « قاتلوا عن أحسابكم » . وكيف يقاتلون وقد أسرع هو إلى الفرار ! أوليس المنطق أن يتبعوه فارًّا كما اتبعوه نبيًّا ! !

ورأى محكَّم بن الطفيل فِرار القوم ، ورأى المسلمين يتعقّبونهم ، فصاح بهم : « يابنى حنيفة ! الحديقة » ، يريد منهم أن يحتموا بها . وكانت هذه الحديقة على مقربة منهم ، وكانت لمسيلمة وتدعى حديقة الرحمان ، وكانت فسيحة الأرجاء منيعة الجدران كأنها الحصن . وقد فرّوا إليها وتحصّنوا بها من هزيمتهم بعد أن خر الألوف منهم صرعى مُجَدَّلين فى الميدان بسيوف المسلمين . ووقف المحكَّم برجاله يحمى ظهورهم أثناء فرارهم . وإنه لكذلك يحاول صدّ المسلمين ويحرّض رجاله على دفعهم ، ويقاتل وإياهم أشد قتال حتى يتحصّن قومه ، إذ رماه عبد الرحمن بن أبى بكر الصدِّيق بسهم وقع فى نحره فقتله .

احتماؤهم بالحديقة

تحصن مسيلمة وقومه بالحديقة . أفيحاصرهم المسلمون وإن طال حصارهم ؟ ! كلا ! إن هذا الجيش الثمل بنشوة الظفر يريد النصر كاملا ؛ ويريده سريعاً . لذلك أحاط بالحديقة يلتمس فيها فرجة تُغنيه عن فتح بابها الوثيق الرّتاج فلم يجد . قال البَراء بن مالك : « يامعشر المسلمين ، ألقونى عليهم فى الحديقة » . قال الناس : « لا تفعل يابراء » . وماذا عسى أن يصنع البراء وحده بين هذه الألوف التى تكدّست فى الحديقة لاجئة من الموت ! لكن البراء أصرّ على قوله وزاد : « والله لتَطْرَحُنّى عليهم فيها » . ورفعه المسلمون إلى أعلى الجدار ، فلما رأى القوم وكثرتهم تردد وتراجع وقال : أنزلونى . لكنه ما لبث أن عاد يقول : احملونى . وتكرر ذلك منه . ثم إنه وقف على الجدار تحدّثه نفسه : إنه البراء البطل الذى يتحدث الناس فى شبه الجزيرة كلها بفِعاله ، ألَا لئن عاد أدراجَه ليقولنَّ الناس : همّ ولم يفعل ، ولَيذهبن ذلك بشهرته فى البطولة ، ولَيتندرنّ الناس بإحجامه بعد الإقدام . وإن حدث ذلك فماذا يبقى له ، وأى وجه يطالع الناس به ! . لذلك نضا عنه تردده وألقى بنفسه على بنى حنيفة أمام باب الحديقة ، فقاتلهم وقتل منهم يمنة ويسرة ، حتى

البراء بن مالك يتسور الحديقة ثم يفتح بابها

فتح الباب للمسلمين ، ودخلوا منه زُمَراً تلمع فى أيديهم سيوفهم ، و يطل الموت من حدق عيونهم ؛ فما لبث بنو حنيفة حين رأوهم أن فرّوا أمامهم يتراكضون فى الحديقة التى انقلبت سجناً تراكض الأغنام رأت الذابح يدخل عليها بسكّينه .

اقتحام المسلمين الحديقة ومهاجمتهم جيوش مسيلمة بها

هذه رواية . ورواية أخرى أن المسلمين تسوّروا الحديقة من الجدران وحاولوا اقتحام الباب . ولعل أبا براء كان بين الذين تسوّروا الجدران أقربهم مكاناً من الباب ، وأنه ألقى بنفسه فى الحديقة ففتحه للمسلمين بعد أن قاتل من وجده من القوم دونه ؛ وذلك حين كان اللاجئون إلى الحديقة فى شغل عنه بمن شدّوا عليهم يرمونهم بالنبل من أعلى .

اقتحم المسلمون الحديقة والتحموا بأعدائهم فيها . وما عسى أن تجدى سيوف بنى حنيفة والأشجار من حولهم تعوقهم ! مع ذلك استحرّ القتال وكثُر القتل بين الفريقين ، و إن زاد قتلى بنى حنيفة على قتلى المسلمين أضعافاً مضاعفة . وكان وَحْشِيٌّ الحبشيّ قد أسلم بعد أُحُد ، و بعد أن قتل حمزة سيّد الشهداء فيها ، وكان حاضراً اليمامة . ولقد رأى مسيلمةَ فى الحديقة فهزّ حربته ، حتى إذا رضى عنها دفعها عليه فأصابته . وقد اشترك معه رجل من الأنصار ضرب مسيلمة بسيفه ، فكان

مقتل مسيلمة

وحشيٌّ يقول : ربك أعلم أينا قتله . وصاح رجل يقول : قتله العبد الأسود .

انهدّت عزائم بنى حنيفة حين سمعوا الصيحة بموت مسيلمة وأسلموا أنفسهم لا يقاومون ، وأمعن المسلمون فيهم قتلا . فلم تعرف بلاد العرب فى تلك العصور موقعة كان فيها ما كان فى موقعة اليمامة من دماء . لذلك أطلق على حديقة الرحمان اسم حديقة الموت ، ولا يزال هذا اسمها فى كتب التاريخ جميعا .

مجاعة يدل خالداً على مسيلمة

ولما انتهت الموقعة أمر خالد فجىء بمُجّاعة من فسطاطه ، فطلب إليه أن يدلّه على مُسيلمة . وجعل القوم يكشفون عن القتلى حتى مروا بمحكّم اليمامة ، وكان المحكم وسيماً ، فلما رآه خالد سأل مجاعة : هذا صاحبكم ؟ وأجاب مجاعة : لا ! هذا والله خير منه وأكرم ؛ هذا محكّم اليمامة . ودخل خالد ومجّاعة حديقة الموت

فمرّوا بجثة ذلك الرويجل الأصيفر الأخينس ، فقال مجاعة : هذا صاحبكم قد فرغتم منه . وقال خالد : هذا الذى فعل بكم ما فعل .

الآن وقد انتهت فتنة مسيلمة ، واجتُثّ أصلها ، وقد قُضِى على جيشه هذا القضاء المبرم ، أفما آن لخالد أن يطمئن ولجنده أن يستريح ؟

خالد يتابع المعركة حتى يبلغ النصر مداه

كلا ! ليس هذا من طبع خالد ، وليست هذه السياسة سياسته فى الحرب . إنما سياسته أن يبلغ النصرُ مداه حتى لا يترك وراءه ما قد تُخشى عواقبه . لم يكفِه من حرب بنى أسد ومن والاهم فرار طليحة ، بل بقى حتى استبرأ الأرض ، وحتى قضى على أمّ زِمْلٍ وفاولها . وهو لم يدَعْ بنى تميم حتى قضى فى ديارهم على كل نافخ فى نار للفتنة أو فى رماد . وكذلك فعل هاهنا . قال له عبد الله بن عمر وعبد الرحمن ابن أبى بكر وقد فرغ ممن لجئوا إلى حديقة الموت : « ارتَحِلْ بنا وبالناس فانزل على الحصون » ، يريدان حصون اليمامة . فكان جواب خالد : دعانى أبثّ الخيول فألقط من ليس بالحصون ، ثم أرى رأيى . وبثّ الخيول فجاءوا بما وجدوا من مال ونساء وصبيان ، فضمه إلى العسكر . ثم نادى بالرحيل لينزل على الحصون فيفتضّها على من بها ، ويفرغ بذلك من بنى حنيفة فلا تقوم لهم من بعدُ قائمة أبداً .

الصلح بين خالد ومجاعة

كان خالد قد وثِق بمجاعة بعد الذى كان من جواره أمّ تميم ، ومن إخلاصه القول له فى مسيلمة ومن معه . وجاء مجاعة هذا إليه وقال : والله ما جاءك إلا سَرَعانُ الناس ، وإن الحصون لمملوءة رجالا ؛ فهل لك إلى الصلح على ما ورائى ؟ ونظر خالد إلى جيشه فرأى قوماً نَهكتهم الحرب وقد أُصيب من أشراف الناس فيهم خلق كثير ، وهم إلى ذلك حِراصٌ على أن يعودوا متوّجين بفخار النصر . أمّا وقد يكون مجاعة صادقاً فقد رأى خالد من الخير أن يصالحه . وتصالحا على أن يحتفظ المسلمون بما غنموا إلّا نصف السبى . واستطرد مجاعة يقول : الآن آتى قومى فأعرض عليهم ما قد صنعت . وانطلق فقال للنساء : البسن الحديد ثم أشرفن على الحصون . وقد فعلن ، ورآهن خالد فأيقن أن مجاعة لم يكذِبه . وعاد مجاعة يزعم

أنهم أبوا أن يجيزوا ما صنع ، وإنما أشرف على رءوس الحصون منهم من أشرف حتى يرجع إليهم فيروا رأيهم . ونزل خالد عن النصف مما كان قد تصالح عليه من السبى . فلما فتحت الحصون لم يجد بها إلا النساء والصبيان ومَشْيخة فانية ورجالا ضَعَفَى . عند ذلك نظر إلى مجاعة مغضباً وقال : ويحك ! خدعتنى ! . وأجاب مجاعة مطمئناً : هم قومى . ولم أستطع إلا ما صنعت . وأكبر منه خالد صدق وطنيته فأجاز الصلح وسرّح صاحبه .

ويروى أن مجاعة ذهب إلى قومه قبل كتابة عهد الصلح ، وقبل أن يرى خالد من بالحصون ، فعرضه عليهم ، فاعترضه سلمة بن عمير الحنفىّ وقال : « لا والله لا نقبل حتى نبعث إلى أهل القرى والعبيد فنقاتل ولا نصالح خالداً : فإن الحصون منيعة والطعام كثير والشتاء قد حضر » . وأجابه مجاعة : « إنك امرؤ غِرٌّ مشئوم . عرك أنى خدعت القوم حتى أجابونى إلى الصلح ، فهل بقى أحد فيه خير أو به دفع ! وإنما بادرتكم قبل أن يسبكم ما قال شُرَحْبيل بن مُسيلمة : قبل أن تُسْتَرْدَف النساء سبيّات ، وتُنكَحْن غيرَ حظيّات » . وسمع إليه القوم فأجازوا صلحه ولم يخفلوا قول سلمة بن عمير .

رسالة أبى بكر إلى خالد وإنفاذه الصلح برغمها

وجاء خالداً رسول من أبى بكر ومعه أمر أن يقتل كل قادر على القتال من بنى حنيفة . لكن خالداً كان قد صالحهم ؛ وهو رجل متى عهد وفى . وحُشِر بنو حنيفة للبيعة والبراءة مما كانوا عليه : وجىء بهم إلى خالد فى عسكره . فبايعوا وأعلنوا براءتهم من الرِّدّة ورجوعهم إلى الإسلام . وبعث خالد بوفد منهم إلى أبى بكر بالمدينة . فلما قدموا عليه قال لهم : ما هذا الذى استذلّ منكم ما استذل ؟ قالوا : ياخليفة رسول الله ، قد كان الذى بلغك مما أصابنا ، وقد كان امرأ لم يبارك الله له ولا لعشيرته فيه .

ولعلك تسأل : كيف رضى خالد عن مجاعة بعد أن خدعه ، وخالد من نعرف

بأساً وشدة ! لكن نصر المسلمين المؤزَّر جعل خالداً أدنى إلى التسامح ؛ وقد بلغ قتلى بنى حنيفة مبلغاً زاده تسامحاً . قيل إن الذين قُتلوا فى حديقة الموت بلغوا سبعة آلاف ، وإن مثل هذا العدد قُتل منهم فى الميدان ، وإن سبعة آلاف أخرى قُتلوا حين بثَّ خالد جنوده تطارد الفارّين . هذا إلى أن الصلح الذى عقده مجاعة قد ترك للمسلمين كل ما غنموا من ذهب وفضة وسلاح ، وجعل لهم ربع السبى ، وجعل لهم فى كل قرية من قرى بنى حنيفة حديقة ومزرعة يختارهما خالد . فإن يكن مجاعة قد أنجى بعد ذلك من بقى من قومه فلم يقتل منهم كل قادر على القتال ، فإن قومه جميعاً قد رجعوا إلى الإسلام وأقرّوا بسلطان أبى بكر . أمَّا وقد بلغ خالد ذلك كله فليس له أن يغضب من مجاعة لخدعته أو ينقم منه بسببها .

عدد القتلى من بنى حنيفة

وكما بلغ قتلى بنى حنيفة ذلك العدد الذى لم يكن يدور بخلد أحد من أهل ذلك العصر فى بلاد العرب ، بلغ عدد القتلى من المسلمين مبلغاً جاوز كل ما كان يجرى فى تقديرهم . قُتل فيها من المهاجرين ثلثمائة وستون ، ومن الأنصار ثلثمائة ، وذلك خلا من قتلوا من أهل القبائل . وبلغ مجموع قتلى المسلمين مائتين وألفا .

وعدد قتلى المسلمين

ولقد عيّر المهاجرون والأنصار أهل القبائل وفاخروهم بعدد قتلاهم . ولم يكن تفوق المهاجرين والأنصار مقصوراً على زيادة العدد فى القتلى ، بل كان بين هؤلاء تسعة وثلاثون من كبار الصحابة ومن حُفّاظ القرآن . وأنت تعرف ما لهؤلاء وأولئك من قدر ومقام بين المسلمين . ولكن ! رُبَّ ضارَّة نافعة ؛ فقد كان مقتل هؤلاء الحفّاظ سبب جمع القرآن فى خلافة أبى بكر مخافة أن يستحرّ القتل فى سائرهم من بعدُ ، كما استحرّ فيمن حضر منهم غزوة اليمامة .

ولم يكن يعدل حزن المسلمين بمكة والمدينة على هؤلاء القتلى إلا فرحهم بما آتاهم الله من النصر . عاد عبد الله بن عمر بن الخطاب بعد أن أبلى فى اليمامة أحسن البلاء . فلما لقيه أبوه قال له : « ما جاء بك وقد هلك زيد ! ألا واريت

حزن المسلمين بمكة والمدينة على القتلى

وجهك عنى ! » . وأجاب عبد الله : « قد حرصت على ذلك أن يكون ، ولكن نفسى تأخّرت فأكرمه الله بالشهادة » . وفى رواية أنه قال : « سأل الله الشهادة فأُعطيها ، وجَهدت أن تساق إلىّ فلم أُعْطَها » . وليس حزن عمر لمقتل أخيه زيد إلا مثلا لما عمّ مكة والمدينة من أسى على الأبطال الذين استُشهدوا فى قتال مسيلمة .

أفحزِن خالد بن الوليد كما حزِنوا ؟ أفأزعجه منظر القتلى وروّعه مسيل الدماء ؟! كلا ! ولو أن ذلك كان لما جاز له يوماً أن يتولّى القيادة ، وأن يكون فاتح العراق والشام ، وموطّد الأساس الأول للإمبراطورية الإسلامية . وأين القائد القادر الذى لا يهتز طرباً حين يرى الألوف من الأعداء يخرّون صرعى أمام جيوشه ! لم يُرَعْ خالد إذن ولم ينزعج ؛ بل إنه لم يلبث حين اطمأن إلى النصر وأتم الصلح وتسلّم زمام الأمر أن دعا مجاعة إليه وقال له : « زوِّجنى ابنتك » . وكان مجاعة قد سمع بحديث ليلى أم تميم وباستدعاء أبى بكر خالداً وتعنيفه إيّاه على ما فعل مما يخالف تقاليد العرب ، فقال : « مهلا ! إنك قاطع ظهرى وظهرك معى عند صاحبك » . ولم يعجب خالداً هذا الكلام فلم يُعِره أية عناية ، بل حدّق إلى الرجل وقال : « أيها الرجل زوّجنى » . ومن ذا يستطيع أن يعصى له إثر نصره فى اليمامة أمراً ! وزوّجه مجاعة ابنته ، فدخل بها فى بيت أبيها ، ثم جعل لها فسطاطاً يجاور فسطاط أم تميم .

خالد يتزوج ابنة مجاعة

وبلغ أبا بكر ما صنع خالد ، فتولّته الدهشة أوّل ما عرفه ، ثم استحالت الدهشة غضباً ، فاستحال الغضب ثورة . لقد كان كل دفاعه عنه فى حادث أم تميم أنه لم يقتل زوجها ليتزوّجها ، وأنه إن يكن أخطأ فإنما خطؤه أنه خالف تقاليد العرب وصنع ما يعيبونه من مثل هذا التزوج والدماء تقطر والمآتم قائمة . فكيف به يكرر فعلته فى اليمامة وقد قُتل بها من المسلمين مائتان وألف ، ولم يكن قتل منهم أحد فى حادث مالك بن نويرة ! لذلك لم يملك أبو بكر وهو الحليم غضبه ، بل

ثورة أبى بكر لزواج خالد وكتابه إليه فى ذلك

دفعته ثورته فكتب إليه كتاباً « يقطر بالدم » على حد تعبير الطبرى ، جاء فيه : « لعمرى يابن أم خالد إنك لفارغ ! تنكح النساء و بفناء بيتك دم ألف ومائتى رجل من المسلمين لم يَجِفْ بعد » . وتناول خالد الكتاب ونظر فيه فتألم لغضب أبى بكر وهزّ رأسه وجعل يقول : هذا عمل الأُعيسر . يعنى عمر بن الخطاب . لكن الأمر لم يجاوز الأسف لغضب أبى بكر من جانب خالد ، ولم يجاوز هذه الثورة على خالد وهذا الكتاب إليه من جانب أبى بكر .

عذر خالد بالغ

ومن تكون بنت مُجّاعة فى أعياد النصر التي يجب أن تقام لخالد ! . إنها لن تزيد على قُربان يطرح على قدمى هذا العبقرىّ الفاتح الذى روّى أرض اليمامة بالدماء لعلها تطهر من رجسها . بل إنها لن تزيد على جارية من الجوارى اللائى يضربن بالدفوف فى هذه الأعياد و يتغنين مطربات ، أن عاد مهد الإسلام كاملا إلى حمى الإسلام . لكن ! تبارك اسمك اللهم ! إن الإسلام لا يعرف هذه الأعياد ، و إنما يعرف أن النصر من عند الله يؤتيه من يشاء . وقد آتاه خالداً ، فأعزّ به دينه الحق ، ومحق به الردة والمرتدين .

محا خالد الردّة والمرتدين بغزوة اليمامة ومحقهم . بذلك آن لبلاد العرب أن تطمئن وتدين بدين الله . فأما ما بقى من أنباء حروب الردة بمَهْرَةَ وعُمَان واليمن مما تلا اليمامة فلم يكن فى مثل خطرها . من ثَمَّ آن لأبى بكر بعد اليمامة أن تسكن نفسه ، وآن لخالد بعدها أن يستريح .

وتحوّل خالد إلى واد من أودية اليمامة يقال له الوَبْر ، وكان له به منزل جمع فيه بنت مجّاعة وأم تميم .

أفطال هناك مُقامه و كملت هناك راحته ؟ ذلك شأن لم تحدِّثنا به كتب التاريخ .

لكن سياسة أبى بكر وسياسة الإسلام كانت لا تزال فى حاجة إلى سيف خالد ، وسنلقاه لذلك عما قريب . فإلى الملتقى عبقرىّ الحرب وسيف الله ! إلى الملتقى على شواطئ الفرات !